



نوف السعيدية

ملاحظات حول الأخلاق

يدعي إبراهيم صقر في مقاله المعنون بـ « الأخلاق والقيم في الفكر الإسلامي القديم: العقل الأخلاقي العربي » والمنشورة في مجلة التسامح أنه يناقش المذاهب الأخلاقية عند المفكرين المسلمين؛ إلا أن مقاله أقرب لأن يكون خطبة وعظية تفتقر إلى المنطق العلمي. وعلى المستوى الشخصي أشعر بالسعادة لأن المقال وقع بين يديّ لأنني مهتمة بفلسفة الأخلاق عند البشر بشكل خاص، والكائنات الاجتماعية بشكل عام. ورغم أن المقال يحتوي على مجموعة من المقولات التي لا أتفق معها إلا أنني سأورد أهمها فقط :

١. صلة علم الأخلاق بالعلوم الأخرى: يقول الكاتب إنه من غير المصيب القول بأن الفكر الإسلامي خال من المذاهب الأخلاقية، الحضارة الإسلامية « من وجهة نظره » قائمة على الأخلاق والأخلاق بطبيعتها أقرب العلوم إلى الدين». لكن أين هو موضع علم الأخلاق من العلوم الأخرى. ألا يعتمد على المنهج العلمي في دراسة مسائل الأخلاق؟ إذا كانت الإجابة بنعم فهذا يعني أنه كعلم بعيد عن العلوم الدينية، وإن كانت الإجابة بلا فهذا يستدعي التوضيح إذ يبدو أن الكاتب يعتمد على الأدلة النقلية التي لا يعتد بها في العلوم. أليست الأخلاق أقرب للفلسفة؟ علم النفس الاجتماعي؟ علم السلوك؟ حقيقة لا أدري على أي أساس يبني الكاتب استنتاجه هذا.

٢. الأخلاق بالنسبة للسلوك: بينما ينظر للسلوك الإنساني أنه نتيجة للوعي ثانياً والمعرفة أولاً، أي أنه يأتي في مرحلة لاحقة للتبني الأخلاقي، يرى الكاتب أن «السلوك الإنساني لا يكون خلقاً إلا إذا صار طبعاً وجبلة... إلا إذا صار عادة لصاحبه أو ميلاً».

٣. الإرادة والأخلاق: «إذا ما راقبنا سلوك الحيوان وانتقاله من التوحش إلى التأنس، ومن الجماع إلى السلاسة. وإذا كانت هذه الحيوانات وغيرها يتعدل سلوكها من حالة إلى حالة رغم أنها لا تملك الفعل فالأولى إذن أن نقول: إن الإنسان الذي وهب العقل يمكنه أن يغير أخلاقه من حالة إلى حالة أحسن منها». يقول الكاتب باختصار إن الدليل على المقدرة على تغيير الأخلاق عند الإنسان هو تغييرها عند الحيوان، مرتكباً بذلك مجموعة من الأخطاء المنطقية. أولاً: هو يقول إن «الفضيلة الأخلاقية لا تنطبق إلا على الأفعال الإرادية الاختيارية»، والحيوان في هذه الحال لا يتغير بسبب الإرادة إنما بسبب الضرورة والضغط المفروض عليه. ثانياً: التحول «من التوحش إلى التأنس» قد لا يكون أخلاقياً بالنسبة لجماعة الحيوان، فاستخدام

كلمة «يتعدل» بما تحوي ضمناً من معاني التحول إلى الأفضل قد لا يكون دقيقاً.

٤. العزلة والفضيلة: «الفضائل إنما تظهر في مجتمع ولا تظهر في عزلة الراهب»، شخصياً أرى أن الفضيلة توجد في صلة الإنسان بالطبيعة ومع الكائنات الأخرى وحتى بينه وبين نفسه، نعم قد تكون أوضح بوجود ناس آخرين ولكنها تبقى موجودة دائماً، هذا أولاً أما ثانياً فالكاتب يستخدم لفظة «الأخلاق» و«الفضيلة» كمترادفات، وهو أمر غير دقيق.

٥. «الإنسان من بين جميع الموجودات كلها هو الذي يلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية لا يشاركه فيها سائر الموجودات، بينما تكشف الدراسات الحديثة عن وجود منظومة أخلاقية لجميع الكائنات الاجتماعية، إذ يمكن ملاحظة سلوكيات تنم عن الإيثار، التعاطف، والانتصار للجماعة .

٦. من يضع الأخلاق؟ يرى الكاتب أن «المستنبط في الأخلاق هو مدير المدينة أو الملك» وذلك «حتى لا يؤدي إلى ما حذرنا منه سقراط وأفلاطون وأرسطو من الخلل، والفوضى الكامنة وراء المبدأ السفسطائي أو إن شئت من هذا المقياس الأخلاقي النسبي المؤدي حتماً إلى الفوضى والاضطراب». وهذا رأي خطير. في الإنجليزية يتم التفريق بين مفهومين Ethics و Morals حيث تأتي الايتكس من النظام الاجتماعي، أما المورالز فهي راجعة للفرد وهي غالباً ثابتة ما لم تتغير وجهة نظره. من يضع الأخلاق إذا؟ على الأغلب سيكون المفكرين ولكن يبقى للفرد خيار الأخذ بها من عدمه. فالأخلاق تحكم أفعالنا من أصغرها لأكبرها، فماذا عن الأفعال الصغيرة؟ كيف تحدد؟ هل تختار الكرم أم الاقتصاد في عشاء تعده لضيوفك؟ الكاتب يقول إن الأفعال الأخلاقية تقع بين متطرفين فالكرم مثلاً يقع بين التبذير والتقتير ولكن أين يقع الخط الفاصل بينهما؟ قد تكون هذه المسألة أحد أهم قضايا